فكرة الاستقلال

لعميد الأدب العربي

الدكتور طه حسين بك

من الأوليات التي يجب ألا نغفل عنها ولا نقصر فى استحضارها أمام أنفسنا دائما ، أن الأزمات العنيفة التي تلم بالإنسانية بين حين وحين ، تستتبع دائماً تغيير طائفة من القيم التي ألفها الناس .. وقد تتغير المعانى تغيراً شديداً وتبقى الألفاظ التي كانت تدل عليها كما هى لا يصيبها تغيير ولا تبديل ، فينشأ عن ذلك كثير من الاختلاط والاضطراب ، إذا لم نلاحظ هذه الأولية التى أصورها الآن . وفكرة الاستقلال من هذه الأفكار التي تغيرت قيمتها بحكم الأزمات العنيفة التي ألمت بالإنسانية منذ أول هذا القرن ، وليس من شك فى أن كلمة الاستقلال تدل الآن على معنى مخالف للمعنى الذي كانت تدل عليه قبل أن تثار الحرب العالمية الأولى .

في ذلك الوقت ، كانت كلمة الاستقلال تدل على الحرية الكاملة ، أو التي تشبه أن تكون كاملة لأى أمة من الأمم فى تقرير ما يعنيها من الأمور .. في سياستها الداخلية والخارجية على اختلاف فروع هاتين السياستين .. فبريطانيا العظمى مثلا ، كانت تستمتع بحرية كاملة في تدبير شؤونها كلها ، سواء منها ما يمس حياتها في أرض الوطن البريطاني ، وما يمس الصلة بينها وبين أجزاء الامبراطورية البريطانية ، وما يمس الصلة بينها وبين الدول الأخرى .. قوية كانت هذه الدول أم ضعيفة

ولكن الحرب العالمية الأولى اضطرت بريطانيا العظمى إلى أن تتعاون مع حلفائها وأن تلائم بين سياستها الخارجية وسياسة هؤلاء الحلفاء ، بل أن تلائم بين سياستها الداخلية وبين ما تقتضيه الحرب من الجهود ، فكان ذلك تضييقا لاستقلالها وحدا من حريتها في الاستمتاع بهذا الاستقلال . كانت بريطانيا العظمى بحكم استقلالها المطلق تستطيع أن توجه سياستها الخارجية أثناء الحرب توجيها يناقض اتجاه السياسة الفرنسية مثلا ، ولكنها لو فعلت لعرضت التحالف للخطر ولأضاعت على نفسها وعلى حلفائها ما كانوا يبتغون من النصر . وهي كذلك كانت تستطيع أن تنظم اقتصادها كما تشاء ، معارضة في ذلك ما كان حلفاؤها يتخذون لأنفسهم من نظم اقتصادية ، ولكنها لو فعلت لقصرت في الجهد الحربى ولأفسدت الأمر بينها وبين حلفائها ، ولعرضت نفسها وعرضتهم للهزيمة والخذلان . فهي قد اضطرت إذن كما اضطر حلفاؤها إلى تنسيق الجهود التي تقتضيها الحرب ، وإلى الاتفاق فى التوجيه السياسي إلى وجهة واحدة وهي الاستكثار من الأصدقاء والاستعانة بكل ما يمكن الاستعانة به على كسب الحرب .

وإذا ذكرت تنسيق الجهود وذكرت التعاون والاتفاق على التوجيه السياسي ، فقد ذكرت النزول عن شيء من الاستقلال قليل أو كثير . ولكن هذا النزول قد كان اختياريا - إن صح هذا التعبير - أرادته بريطانيا العظمى لتكسب الحرب ، وكانت تستطيع ألا تريده وأن تعرض نفسها للهزيمة ، وكانت تستطيع ألا تريده وألا تشترك في الحرب أصلا . ولكنها اشتركت فى الحرب عن إرادة حرة ، فاحتملت نتائج هذا الاشتراك عن إرادة حرة أيضا ، ونزلت عن بعض استقلالها راضية مختارة لم يكرهها على ذلك أحد ، ولم يضطرها إليه شعب من الشعوب ، فهى فى حقيقة الأمر لم تنزل عن بعض استقلالها لأحد وإنما نزلت عنه للظروف والضرورات العامة التي يخضع لها الناس جميعاً .

وانتهت الحرب العالمية الأولى واستردت الأمم المنتصرة كثيراً من استقلالها الذي نزلت عنه للظروف ، ولكنها لم تسترده كله ، وإنما ظلت مضحية بجزء منه في سبيل تنظيم السلم فلم يكن بد من التعاون على تنظيم السلم كما لم يكن بد من التعاون على كسب الحرب . وأيسر ما نلاحظه من النزول عن بعض الاستقلال بعد انتهاء الحرب استمرار التعاون على وضع معاهدات الصلح أولا ، فقد كانت لكل دولة من الدول المنتصرة مذاهبها في معاملة المنهزمين ، ولكنها اضطرت إلى أن تلائم بين هذه المذاهب ، وإلى أن تنزل كل دولة عن بعض آرائها حتى لا تضيع جهود الدول كلها ، وحتى لا يصبح بعض المنتصرين لبعض عدواً ، ثم النزول عن بعض الاستقلال الاقتصادى ثانياً . فليس في بلاد الأرض بلد يستطيع أن يستغنى بموارده عن البلاد الأخرى ، ولا سيما في أعقاب الحروب العنيفة . ثم النزول عن بعض السيادة . ثالثاً بإنشاء عصبة الأمم التي كان عهدها يفرض على أعضائها أشياء تناقض السيادة الكاملة قليلا أو كثيراً .

وواضح جداً أن حياة أوربا ، بل حياة العالم بعد الحرب العالمية الأولى ، كانت صراعا متصلا بين استرجاع الاستقلال كاملا موفوراً واستبقاء النزول عن بعضه في سبيل المصلحة العالمية العليا . فأما أمريكا فلم تمض في هذا الصراع ، وإنما رفضت ما أقره رئيسها ولسن ، واستردت حريتها كاملة ولم تشترك فى عصبة الأمم مع أنها هي التي اقترحتها .

وأما الدول الأخرى المنتصرة فقد مضت في هذا الصراع على أن تسترد استقلالها شيئا فشيئا ، وتتخذ العبث بعصبة الأمم وعهدها وسيلة إلى استرجاع هذا الاستقلال . وقد نشأ في ذلك من الاصطدام بين المصالح الخاصة والمصالح العامة ما يعرفه الناس جميعا ، وما قضى بأن تنسحب بعض الدول من عصبة الأمم مع انها شاركت في تأسيسها . وليس شبوب الحرب العالمية الثانية إلا نتيجة لهذا الصراع العنيف المتصل بين الأثرة التي كانت تدفع الأمم إلى استرجاع استقلالها كاملا موفورا ، والايثار الذي كان يدعو الأمم إلى النزول عن بعض هذا الاستقلال رعاية للسلم وتحقيقا للمصالح الانسانية العليا . وقد تغلبت الأثرة على الايثار فانهارت السلم وانهارت معها عصبة الأمم ، وشبت الحرب من جديد واضطرت الدول الكبرى

إلى أن تعود إلى النزول عن كثير من استقلالها لتنسق جهودها مرة أخرى في سبيل كسب الحرب .

وقد انتهت الحرب العالمية الثانية وعاد المنتصرون إلى الصراع القديم بين استرجاع استقلالهم كاملا موفوراً واستبقاء النزول عن بعضه لتقوم السلم على أساس متين .

فالذين يجتمعون في موسكو الآن قد يدرسون هذه المسألة أو تلك من المسائل الدقيقة التي تثير بينهم الخلاف ، ولكنهم فى حقيقة الأمر إنما يدورون حول مسألة واحدة هي مسألة الاستقلال .. أيسترده كل منتصر كاملا موفورا فيدبر أمره وسياسته ونفوذه وصلاته الخارجية كما يريد ، أم ينزل عن بعضه لتنسق الجهود في السلم كما كانت منسقة في الحرب !

هذه هى المسألة التي يدور حولها اجتماع موسكو كما دار حولها اجتماع لندره ، وكما دارت حولها الاجتماعات الأخرى التي عقدت في الدار البيضاء وفي القاهرة وفي طهران وفى القرم وفى بوتسدام . والظريف أن العالم يشهد الآن منظرين لا يخلوان من طرافة : أحدهما منظر هذا الاجتماع الصغير الخطير الذي ينعقد الآن في موسكو ، والآخر منظر هذا الاجتماع الكبير الذي يهيأ الآن لانعقاده فى لندرة ، وهو اجتماع الأمم المتحدة . فأما الاجتماع الصغير في موسكو فهو اجتماع عملي يواجه المسائل في صراحة بشعة مخيفة ليس فيها أثر للمثل الأعلى ولا للطموح إلى الكمال ، وإنما هي المنافع تلتقى لتنظر أتستطيع أن تتفق أم هى مكرهة على الاختلاف . فهل تطلق يد روسيا السوفييتية فى شرق أوروبا وجنوبها ، وهل تطلق يد بريطانيا العظمي في غرب أوروبا ، وكيف تنظم شؤون إيران وتركيا؟ وإلى أى حد تطلق يد الولايات المتحدة في الشرق الأقصى ، وكيف يقام التوازن بين المنتصرين فى الشرق الأدنى وفي الشرق الأوسط ؟ أو أين يكون موقع الطاقة الذرية من هذا كله ؟ هذه هي المسائل البشعة التي يدور حولها اجتماع موسكو فى صراحة ما نظن أنها ترضى الاخلاق أو تلائم طموح الناس إلى الرقى والكمال . أما الاجتماع الكبير الآخر الذى يهيأ الآن لاجتماعه في لندرة فهو اجتماع مثالي - كما يقال - لن يذكر فيه إلا السلام الشامل والعدل الكامل والتعاون على نشر الحرية والمساواة ، وعلى تأييد الحق والانصاف . وكذلك ينظر العالم الآن إلى المنافع وهى تلتقى سراً في موسكو لتدبر أمرها على خفية من الناس ، وإلى المثل العليا ، وهي تريد أن تلتقى جهرة فى لندرة لتسمع العالم ألوانا من العناء الذي يحسن وقعه في القلوب والنفوس .

وفي هذا شيء من الرقى من غير شك ، فليس الخير فى حاجة إلى الاستخفاء ، وهو من أجل ذلك حاول أن يعلن نفسه في سان فرنسسكو ويحاول أن يعلن نفسه في لندرة ، وأما الشر فهو الذي يستخفى ويجتهد في أن يستر نفسه عن العيون . وقد حاول أن يظهر في لندرة حين اجتمع وزراء الخارجية للدول الخمس فأنكره الناس وكرهوا منظره وضاقوا به وأشفقوا

منه ، فهو يستخفى الآن فى أعماق الكرملين يبحث لنفسه عن زينة يخدع بها الناس عن أنفسهم

ولا يظن القارئ أنى اعمد إلى الاستعارة والمجاز وتزيين القول ، وإنما هو الحق الواقع أصوره كما هو ، فاجتماع الأمم المتحدة ينعقد جهرة فى سان فرنسسكو ولندرة لأنه محاولة - قوية أو ضعيفة خصبة أو عقيمة موفقة أو مخفقة - لإقامة السلم وتحقيق التعاون والتقريب بين الشعوب . والاجتماع الخاص فى موسكو إنما هو الاجتماع لتقسيم الغنائم وتوزيع الأسلاب وتنظيم النفوذ ، على أن يكون هذا كله شيئا يظهر أقله ويستخفى أكثره ويتخذ أساساً لمسلك المنتصرين فى اجتماع الأمم المتحدة ، والأمر كله يدور على فكرة الاستقلال هذه ، أيستردها المنتصرون كاملة موفورة فيصبح بعضهم لبعض عدوا ، أم يمضى المنتصرون في تنسيق الجهود وتنظيم التعاون والنزول عن بعض الاستقلال أثناء السلم كما نزلوا عن بعضه أثناء الحرب فيتاح لهم أكل الأمم المستضعفة في هدوء ورفق وفي غير حرب ولا صراع !؟

أما فكرة الاستقلال بالقياس الى الأمم الضعيفة ، أو الى الأمم المستضعفة ، فأمرها شر من أمر الاستقلال بالقياس إلى الدول الكبرى المنتصرة . ولست أذكر الأمم المحررة ، فان قصتها مؤذية للنفوس حقا .. فهذه الأمم قد ضحت باستقلالها كله في سبيل النصر ، ووعدت بأن يرد إليها هذا الاستقلال كاملا موفوراً ، وهو يرد إليها الآن قطرة قطرة ، ويرد إليها بشرط أن تذعن لسلطان المنتصرين ، وأن تشكل استقلالها كما يريدون هم ، لا كما تريد هي .. فان لم تفعل ، فستتعرض للجوع والبرد والشقاء والحرمان .. وأما الأمم المستضعفة فاستقلالها فكاهة من الفكاهات ، هي أعضاء تشترك في جماعة الأمم المتحدة ، يقول ممثلوها ما يشاءون ، ويستمتعون بالمساواة مع ممثلى الدول الكبرى . ولكن هذه الأمم يجب أن تخضع لهذا المنتصر أو ذاك ، حسب موقعها من مناطق النفوذ ، ويجب أن تخضع للمنتصرين جميعاً حين يتفق المنتصرون جميعاً ، فاذا اختلفوا وجب عليها أن تنحاز لمن تقع في منطقة نفوذه .

وكذلك توجد أمم مستقلة بمعنى جديد لم يكن معروفاً قبل هذا القرن ، أو كان معروفاً في العصور القديمة أيام الرومان ، ثم نسيته الانسانية حيناً من الدهر ، ثم عادت فتذكرته وأخذت في إحيائه الآن ، وهو الاستقلال الذي يعتمد على الحلف بين القوى والضعيف .. للقوى حقائق الأشياء ، وللضعيف مظاهرها وأشكالها . وقد عرف التاريخ القديم دولا في الشرق كانت لها مظاهر الاستقلال السياسى كاملة ، وكانت حليفة لروما وكانت كلمة الحلف توشك أن تدل على ما كانت تدل عليه كلمة الحماية منذ حين . فهذا النوع من الاستقلال القديم الجديد هو الذي أخذ ينتشر في الشرق منذ الحرب العالمية الأولى ، ويظهر أن الانسانية أحبته وكلفت به فهو يريد أن ينتشر في أوروبا أيضاً ، فاليونان مستقلة الآن ، ولكن البريطانيين يقضون في شؤونها الداخلية كما يشاءون . فان لم يتح لهم ذلك فقد كانت هناك مدافع ودبابات تردهم إلى الصواب في العام الماضي ، وما زالت هناك أموال ترد اقتصادهم إلى

الاستقلال إن عقلوا وتدفعهم إلى الهوة إن آثروا الجنون . ورومانيا مستقلة وبلغاريا مستقلة أيضاً ، ولكن بشرط أن يستظل هذا الاستقلال بظل من روسيا ، وإلا فان مستقبل رومانيا وبلغاريا معرض لخطر شديد . والمهم هو أن كلمة الاستقلال قد أصبحت الآن من هذه الكلمات المرنة التي يمكن أن تمتد حتى تدل على كل شيء ، وأن تنقبض حتى لا تدل شيء ، يمكن أن تمتد فتدل على استقلال دول الشرق الأدنى ودول البلقان وإيران أيضاً وتونس ومراكش إن شئت ، فان لهذه الدول كلها مظاهر الاستقلال على نحو من الأنحاء ، ويمكن أن تنقبض حتى لا تدل على شيء وحتى يمكن أن يقال إن بريطانيا العظمى نفسها ليست مستقلة .. انها في حاجة إلى الولايات المتحدة لتجد ما تنفق من المال ، وفى حاجة إلى هذا الجزء أو ذاك من أجزاء الأرض لتجد ما تأكل من الطعام ، وفى حاجة إلى هذه السوق أو تلك لتبيع ما تنتج من المصنوعات ، وهى محتاجة إلى رضى حلفائها وموافقتهم لتبسط نفوذها هنا أو هناك .

كلمة الاستقلال إذن قد فقدت قيمتها القديمة وأصبح من الحق على الشعوب التي تريد أن تكون حرة تدبر أمورها كما تريد لا كما يريد غيرها ، وكما تقتضى مصالحها لا مصالح غيرها .. أصبح من الحق على هذه الشعوب أن تعبر عن هذا الذي تطمح إليه بلفظ آخر أقل مرونة من لفظ الاستقلال . ولست أدرى ما هو ولعل مجمع فؤاد الأول للغة العربية أن يجد لنا هذا اللفظ الجديد أو القديم .

طه حسين

مسامرات الجيب ، ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٤٥ .